مقدمة

لعلها ليست مصادفة أن تسمى السورة التى بدأت بالحديث حول الزنا وحدوده فى حالاته المختلفة بسورة «النور». وأسماء السور- على ما نعلم- أمر توقيفى، وربما كان فى ذلك إشارة لطيفة، إلى أن مثل هذه القضايا الخطيرة، التى أتى ذكرها فى سورة «النور»، لا بأس من مناقشتها فى النور، بوضوح تام، فالجهل والظلام أعدى أعداء الإنسان، وقديما قالوا: الإنسان عدو ما يجهل، وقد ورد أيضا من مأثور قوله- صلى الله عليه وسلم: «.. عرفت فالزم».

وقد تحدث القرآن الكريم عن الذكر وعن الأنثى، وعن بعض الأمور الجنسية الطبيعية، كالزواج والتناسل والرضاع وضوابطها، مثل متى يجب تجنّب الاتصال الجنسى فى الزواج؟ وما إلى ذلك من موضوعات وقضايا. كما تحدث أيضا عن بعض العلاقات الجنسية الشاذة، كالزنا واللواط. كما تحدث عن بعض الأمور الشرعية والاجتماعية الأخرى التى تهم الجنسين والمجتمع كله، كتنظيم الميراث واللباس والاختلاط والتزاور وغيرها من علاقات وأمور كثيرة.

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ

أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الروم: ٢١. ففضلا عن أن الزواج هو الوسيلة الشرعية والطبيعية، لحفظ النوع من الانقطاع والانقراض، فإنه آية من آيات الله التى تهدف إلى السكن، وإلى إشاعة جو من المودة والرحمة، التى لولاهما لاستحالت الحياة إلى جحيم لا يطاق، وهذا أمر يدعو إلى التأمل والتدبر والتفكير. والله تعالى حينما قال: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الذاريات: ٤٩، يؤكد سبحانه الزوجية فى جميع الخلق فى مقابل وحدانية الخالق جل وعلا، وجعل من ذلك أمرا يستوجب الاسترجاع والتذكر للتأمل والتفكر والتدبر، كما هو أيضا مدعاة لتأكيد عدم المثلية أو التشابه بين الخالق والمخلوق، فهو القائل أيضا: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ الشورى: ١١.

وكما تشير الآية الكريمة فإن هذه الزوجية تعم جميع المخلوقات بدءا من الإنسان أكرم مخلوق إلى أصغر الجسيمات الذرية- ما اكتشف منها وما لايزال فى طى الخفاء- مرورا بعالم الحيوان وعالم النبات بل وعالم الجماد أيضا من الذرة إلى المجرة، بل وفى الطاقة والمادة، وفى الكهرباء: فى الشحنات الموجبة والسالبة، إلى غير ذلك من مفردات الكون والوجود. فالزوجية إذن هى سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنته تبديلا.

كما أفاض الرسول- صلى الله عليه وسلم- فى الحديث عن العلاقات الزوجية بكل دقائقها وتفصيلاتها، وما يدور حولها من

أمور، إما تعليما للناس كثيرا من أمور دينهم ودنياهم مما يتعلق بهذه الموضوعات، وإما ردا على تساؤلات من الصحابة والصحابيات- رضوان الله عليهم جميعا.

والواقع أن ما حفزنى إلى تأليف هذا الكتاب، من جانب آخر، هو النقص الشديد فى الكتب الجادة، التى تعالج مثل هذه الموضوعات، بمنهج علمى بعيد عن الإثارة والدعاية، أو بهدف التربح أو الإفساد! وإذا وجدت بعض الكتب، التى تعالج فصلا أو فصلين، لضرورة ذلك فى خدمة الموضوع الأساسى للكتاب، فإنما يكون بالقدر الذى يسمح بذلك فحسب! وقلما تجد كتابا يتناول هذه الموضوعات كلها على صعيد واحد. وإذا تفرس الناقد فيها مليا، فسوف يجد ارتباطا وثيقا بينها فى المضمون والترتيب أيضا، وربما لا نستطيع حذف بعضها إن أردنا ذلك، حيث يكمل بعضها البعض الآخر. فوسائل منع الحمل لا يمكن مناقشتها دون التعرض لتشريح وفسيولوجيا جهازى التناسل فى كل من الذكر والأنثى. وبالمثل فإن معالجة الأمراض التناسلية مرتبطة بمناقشة موضوع البغاء، الأمر الذى يفضى إلى معالجة ارتباط ذلك بالجوانب السيكولوجية والاقتصادية!

فالكتاب من هذه الزاوية يمثل وحدة واحدة، تبين مدى أهمية هذه القضية برمتها، ومدى ما تحقق من إنجازات على أيدى العلماء والأطباء المشتغلين بهذا العلم (Sexology أى علم الجنس)، الذى تُؤَلَّفُ فيه الآن

المطـولات، والذى يُدَرَّسُ فى أروقة كليـات الطب والعلوم، وغيرها من كليـات ومعاهد معنية بهذه الموضوعات العلميـة، التى ترتبط بالحياة والاقتصاد، بل وبمسـتقبل الإنسان بشـكل عام. ولذا فإنه من المناسب، بل من الضرورى أن يعرف كل رجل وكل امرأة، هذه المعلومات العلمية والطبيـة الموثقة؛ لارتباطها بجانب هام مـن حياتهم. فالكتاب مقدمة لا غنـى عنها لفهمهـا والتعامل معها فى ظل هـذا الفهم، وليس بناء علـى مفاهيم خاطئة أو مشوشـة. وهو من ناحية أخـرى أكثر أهمية، خصوصا بالنسـبة لأولئك الذين يبحثون عن حلول لمشاكلهم الجنسية، عند المتخصصين، من الأطبـاء والمعالجين، على الأقل لمعرفة إلى مَنْ مِنْ هؤلاء يجب عليهم التوجه، لسؤاله النصيحة والمشورة أو طلب العلاج. فالتـداوى أمر مطلوب، ولا يتنافى مع التـوكل على الله تعالى، وقد أمر به النبى صلى الله عليه وسـلم، حيث يُروى عن هلال بن يسار- رضى الله عنه- قال: دخل رسـول الله صلى الله عليه وسلم على مريض يعوده فقال: «أرسـلوا إلى الطبيب. فقال له قائل: وأنت تقول هذا يا رسـول الله؟ قـال: نعم»[1]. بـل وكان صلى الله عليه وسـلم يفاضل بين الأطباء فـى الكفاءة والتخصص أيضا. فعن زيد بن أسـلم- رضى الله عنهما- أن رجلا أصابه جرح، فاحتقن الدم، وأن رسـول الله دعا برجلين: من بنى

(١) أخرجه أحمد.

أنمار، فقال أيكما أطب؟ فقال رجل: أفى الطب خير؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الذى أنزل الداء أنزل الدواء»[1]. فالنبى- صلى الله عليه وسلم أراد أن يختار منهما من هو أكثر خبرة بهذا المرض[2]. وهذا هو هدفنا الأساسى من هذا الكتاب، المعرفة التى تقود إلى عدم الخوف، بل تقود إلى الإقبال على الحياة السعيدة، التى تهدف إلى إيجاد المواطن الصالح القوى، وهو أحد معايير التفاضل فى الإسلام، حيث أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف..».

أما بالنسبة لشبابنا وفتياتنا، فإن الخطوة الأولى والأهم فى تربيتهم الصحية السليمة، هى تحصيل المعرفة، من مصادرها الموثقة؛ لتصحيح مفاهيمهم حول هذه الأمور الحياتية والبيولوجية الهامة، وبناء عليه تصحيح السلوك المعوج لبعضهم؛ وذلك بإرساء قواعد صحيحة للسلوك الصحى السوى، بعيدا عن المفاهيم الخاطئة والسلوكيات الشاذة والمريضة.

وإذا عرفنا أن معطيات العلم الحديث، تؤكد أن الصحة والحياة إنما يتوقفان على التفاعل الحيوى بين كل من البيئة والوراثة والسلوك،

---

(١) رواه مالك فى الموطأ.

(٢) د. إبراهيم الصياد (١٩٨٧). المدخل الإسلامى للطب. سلسلة مجمع البحوث الإسلامية. السنة ١٨، الكتاب ٤.

أدركنا جليا أن العمل على تحسين الأحوال البيئية، والصحية والغذائية، والسلوكية، والاجتماعية التى يعيش فى إطارها الإنسان، يمكن أن يسهم كثيرا فى الاستفادة المثلى للأفراد، بما وهبهم الله من ثروة وراثية، أيا ما كانت قيمتها، عالية أو متواضعة.

وأخيرا، فإننا كثيرا ما نصادف أسئلة، تأتى على ألسنة الصغار والكبار، منها:

من أين جئنا؟ وكيف نشأنا؟

وتُرى من يكون المسئول عن تحديد نوع (جنس) الجنين؟ الأب أو الأم؟

ومنها أيضا: لماذا يُحذِرنا العلم من زواج الأقارب؟

وما أهمية الفحوص الطبية لكل من الزوجين، قبل الزواج، فيما يختص ببعض الأمور: كفصائل الدم والأمراض التناسلية والوراثية وغيرها؟

ومنها كذلك: ماذا نعنى بالختان؟ وهل هناك أية فائدة نه؟ وهل الخفض فرض دينى؟

ولماذا حذرنا الشرع من اعتزال النساء فى أثناء الدورة الحيضية؟

وما هى الوسائل الجيدة التى يمكن أن تستعين بها الزوجة على تنظيم نسلها؟

ولماذا لا يصح أن تُمارس العلاقات الجنسية خارج نطاق الزواج؟ وما هى أسباب العقم؟

فهذا الكتاب هو محاولة للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، كما هو أيضا محاولة للاقتراب من موضوعات ظلت لأزمان طويلة من المحرمات التى يخشى الجميع الاقتراب منها أو الحديث عنها إلا فى الخفاء، الذى عادة ما تختلط الحقائق فيه بالخرافات والأساطير، وهذا منبع خطير لشر مستطير، لا يدرؤه إلا الحديث بلغة العلم وروحه الوثابة، ففى ضوئه الغامر، تتبدد أمواج الجهل وظلماته، وتتأصل مفاهيم الصحة والسلامة من كل شر وجهل ومرض، ولا شك فى أن هذا جزء هام من رسالة الكاتب والعالم، إن لم يسأله عنه قومه فسيُسْألُ عنه يوم القيامة.

والله الموفق، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

المؤلف